مدينة القدس في الشعر العبري:
قراءة في نماذج منتقاة

د.غانم مزعل
جامعة النجاح الوطنيّة– نابلس/فلسطين

الملخص

يهدف هذا البحث إلى دراسة انعكاس صورة مدينة القدس في الشعر العبري عند الشعراء اليهود في الخارج قبل العام 1948– أي قبل قيام دولة إسرائيل– وصورتها بعد العام 1948 عند الشعراء في إسرائيل. هذا البحث يركز على إبراز الفوارق في الرؤية بين الفترتين، والإشارة إلى الدوافع والأسباب لتلك الفوارق. ويحاول البحث التطرق إلى دوافع توظيف التراث اليهودي التوراتي، والتركيز على الذاكرة اليهودية في الفترة الأولى، وكيف وظفت الحركة الصهيونية فيما بعد هذا الشعر لخدمة أهدافها السياسية، وإنجاح برامجها لإقامة كيان قومي للشعب اليهودي، والتأكيد على الحق اليهودي في فلسطين.كذلك يحاول البحث إبراز التحول الذي طرأ عند شعراء الجيل الجديد بعد عام 1948، وتحررهم من الرؤية الدينية التوراتية – أحادية الرؤية – السالفة، بعد اصطدامهم بصخرة الواقع، والحروب الإسرائيلية العربية، والشرخ في المجتمع الإسرائيلي بين المتدينين والعلمانيين، وبين اليمين واليسار، وبين اليهود والفلسطينيين، الأمر الذي أدى إلى العزوف عن تقديس المكان والحجر، وعن فكرة أرض الزبدة والحليب والعسل، واللجوء إلى الاحتجاج، وجلد الذات، والاعتراف بوجود شعب آخر على هذه الأرض، هو الشعب الفلسطيني.

Abstract

This paper has sought to study the reflection of Jerusalem city image in Hebrew verse among Jewish poets abroad before 1948, before the establishment of Israel, and its image after 1948 among poets in Israel. The paper focuses on highlighting the differences in image between the two eras and the reasons behind these differences. The researcher examined the motives behind employment of Torah Jewish heritage and the focus on the Jewish memory in the first era. He also highlighted Zionist

movement's use of this poetry to serve its political agenda and realize its ambition to establish a national entity for the Jewish people and emphasize the right of Jews in Palestine. Furthermore, the researcher tried to highlight the change of attitude among the then new generation of poets after 1948 after liberating themselves from the biblical religious vision- a unilateral vision- after "crashing head on" with the reality, the Arab –Israeli wars, and the division in the Israeli society between the religious people and the secularists, between the right wing and leftist wing followers and between the Palestinians and Jews. All this has forced the then new generation to shun sacredness of the place and stone and the idea of the land of butter , milk and honey. This generation has resorted to self-flagellation and to recognition of the existence of another people on this land: the Palestinian people.

تمهيد:

مدينة القدس مقدسة في الديانات السماوية الثلاث على مرّ العصور، وإلى القدس تنظر ملايين العيون في العالم. إنها المكان الوحيد على الكرة الأرضية المقدّس لكلِّ الديانات السماوية. وهي محفورة عميقا في ذاكرة البشر. ومنذ العام 1948 أصبحت قضيةً ومعادلة سياسة صعبة الحلول في الصراع الإسرائيلي – الفلسطيني. وقد زاد الأمر تعقيداً وحِدّة بعد حرب العام 1967. إن قدسية مدينة القدس في التراث اليهودي تنبع من قدسية "جبل الهيكل" المكان الذي أُقيم عليه الهيكل الأول والثاني، حيث كان محفوظاً "تابوت العهد" (أرُون هَبْرِيْت). وتابوت العهد يحتوي على الوصايا العشر، التي أنزلها الله على النبي موسى. وتعد الوصايا العشر أهم الوصايا التي نزلت على بني إسرائيل، وهي موجودة في العهد القديم. وهي في مجملها مبادئ أخلاقية وإنسانية وضميرية عالمية، وهي موجودة في الإسلام والمسيحية أيضاً وهي: العدل، وحدانية الله، لا تتخذ لك صنماً، لا تقسم باسم الله باطلا، لا تقتل، لا تَزْنِ، لا تسرق، أكرمْ أباك وأمك، لا تشهد على قريبك شهادة زور، لا تَشتَهِ زوجة جارك(1) وهناك روايات أخرى جاءت لدعم قدسية القدس(2) ونذكر منها قصة اختبار الله لإبراهيم في ذبح ابنه. فحسب الفكر اليهودي الأسطوري، فإن تقديم إسحق أضحية كان يجب أن يحدث في جبل "هموريا" الواقع في أكناف بيت المقدس(3) وكذلك المكان الذي التقى فيه إبراهيم مع ملك المدينة وبارك إبراهيم(4) ومنذ خراب الهيكل ترسخت القدس في الذاكرة الجماعية اليهودية. وقد

ظهرت إثر ذلك طقوس تُذَكِّر اليهودي بالخراب منها: ذَرُّ الرَّماد على رأس الخطيب وخطيبته يوم الزّفاف، وكسر الكأس وغيرها(5)إن بعض هذه العادات موجودة عند بعض الشعوب السامية الأخرى، ولا تقتصر على اليهود فقط. إنّ المزار "حائط المبكى" (البُراق) المقدس عند اليهود، الذي يتوافد اليهود إليه للصلاة، هو حسب الرواية اليهودية بقايا السُّور الذي أحاط الهيكل.

وحين يُصلّي اليهودي فإنّه يوجِّه وجهه شطر القدس، ويذكرها مراراً في صلاته، وتجدر الإشارة هنا إلى أن هناك فرقاً كبيراً بالنسبة لرؤية الحل النهائي لقضية القدس بين الفئات اليهودية المتدينة والعلمانية. ومدينة القدس تشكل موتيفاً في الأدب اليهودي والعبري القديم والحديث ومن جوانب مختلفة، كما هو الأمر في الأدب العربي والإسلامي، والمسيحي؛ "السَّنَة القادمة في أورشليم" هذه هي التّحيّة الشائعة والمألوفة، التي كان يُحيّي بها اليهودُ بعضَهم في المهجر يوم عيد الفصح (والمعروف أيضاً عندهم بـ "عيد الحرية")، منذ السبي البابلي، وحتى قيام دولة إسرائيل. هذه الجملة لها دلالتُها، إذ تَدُلُّ على الرغبة والإيمان بالعودة إلى مدينة صهيون، أورشليم يوماً ما. وفي نظر اليهودي المتدين والعلماني تشكل القدس مركز الرّوحانيات للإنسان اليهودي، وانعكاساً لتطلعاته أينما وُجِد. فقد ورد في سفر "تهليم" ما يأتي:

على أنهر بابل هناك جلسنا وأيضاً بكينا عندما تذكرنا صهيون
وعلى الجداول في وسط المدينة علقنا قيثاراتنا...
كيف نغنّي أغنية الله على أرض الأجانب
إذا أنساك أورشليم فلتنس يميني،
ولتلتصق لساني إلى حلقي إذا لم أذكرك،
وإذا لم أضع أورشليم في أولويات فرحي... (6)

هذه القراءة التي يفتتح بها المصلّي اليهودي صلاة التاسع من شهر آب، في ذكرى خراب الهيكل. هذا اليوم عندهم هو يوم صوم، ويوم حزن. يجد القارئ في هذه الفقرة وصفاً

لوضع اليهود في المنفى إثر السبي البابلي، حيث نرى أن الفقرة مفعمة بالرثاء والنحيب لفقدان صهيون، المرادفة لأورشليم، وأن الفرحة قد فارقت يهود المنفى، لذلك فقد علّقوا القيثارات وعزفوا عنها، بعدما كانت رفيقةً لهم. كما نلحظ القَسَم/الميثاق الذي قطعه اليهودي على نفسه ألّا ينسى أورشليم: "إذا أنساك أورشليم فلتنس يميني."

لقد وردت كلمة "أورشليم" في التوراة ستمئة وتسعا وستّين مرة، ويهوديوت وصهيون مئة وأربعا وخمسين مرة، أي بمجموع ثمانمئة وثلاث وعشرين مرة. أما في العهد الجديد فقد تكررت كلمة "أورشليم" مئة وأربعا وخمسين مرة، وكلمة "صهيون سبع مرات"[(7)] وحسب الكتابات اليهودية يوجد سبعون اسماً للقدس على الأقل. وتشكل القدس "عودة الروح للشعب اليهودي"، إذ هي في الفكر اليهودي المركز الديني والروحي والقومي على مرّ العصور. الملك داوود هو الذي أعلن عنها عاصمةً لمملكته قبل أكثر من ثلاث آلاف سنة، وبعد داوود جاء سليمان ليبني الهيكل. تجدر الإشارة إلى أن شيلو، وبيت-إيل، ونابلس "كانت المراكز للطقوس الدينية اليهودية قبل القدس.

إن الحنين إلى صهيون، القدس ينعكس عند اليهودي في: الصلاة، وفي الرّسم، وفي الشعر، وفي الحج. ونجد كثيراً من الحجاج اليهود المتقدمين في السن، كانوا يأتون إلى القدس رغبة منهم في الموت في القدس- صهيون من أجل أن يُدفنوا بها[(8)]

الحركة الصهيونية وليدة القرن التاسع عشر، هي حركة علمانية، لكنها استمدت الكثير من التراث اليهودي التوراتي، وسخّرته لخدمة أهدافها لتجد لغة مشتركة مع التّيّارات الدينية.

إن معظم الحركات القومية قد نشأت على الأرض التاريخية حيث تعيش الشعوب، وإن علاقة هذه الشعوب مع الأرض لم يكن يساورها أيّ شك، في حين أنّ البتر بين الشعب اليهودي وبين الأرض بعد السبي، قد أثار أسئلة وعلامات استفهام كثيرة بين اليهود أنفسهم، بصدد العلاقة بين الرغبة في التحرر القومي وبين الأرض؛ أرض إسرائيل، وبعد أن قرّرت الحركة القومية اليهودية أن أرض إسرائيل، الوطن الماضي، هو وطن المستقبل، فقد أخذت ترسّخ هذه العلاقة في الذاكرة وفي الحنين إلى الماضي الغابر إلى أورشليم؛ صهيون. وعندما انقطع الرابط بين معظم الشعب اليهودي والأرض، فقد حل مكانها الرابط الديني، وأصبح

الرابطَ الوحيدَ بين الشعب والأرض، وهذا الرابط تمحور في صهيون، وهي مدينة أورشليم، مدينة الملوك – حسبهم– مدينة الهيكل، مدينة داوود، البوابة إلى الجنة "القدس العليا".

ومنذ خراب الهيكل الأول اقترن اسم صهيون / أورشليم بالحنين اليهوديّ والعودة:

" على أنهر بابل، هناك جلسنا وبكينا عندما تذكرنا صهيون "(9)

يتوجه الإنسان اليهودي إلى صهيون/ أورشليم ثلاث مرات في اليوم في أثناء صلاته. إن الحنين إلى صهيون "والعودة إلى صهيون" العاصمة التاريخية، عاصمة ملوك إسرائيل – حسب المعتقدات اليهودية – حيث تواجد الهيكل، دفع اليهود على مرّ التاريخ، ومنذ الخراب إلى إقامة مركز ديني متواصل في صهيون، القدس لتعليم الديانة اليهودية، وذلك لتجسيد الميثاق، والعلاقة، والتواصل التاريخي المستمر بين اليهودي والمكان– القدس. لقد عرفت الحركة القومية اليهودية الحديثة كيف تستغل الذاكرة التاريخية، والحنين إلى صهيون، والرابط الديني، حيث أخذت اسماً لها يمثل هذه العلاقة ومشتقاً من اسم المدينة صهيون وهو "الحركة الصهيونية". كما أن معظم الجمعيات اليهودية التي أقيمت في القرن التاسع عشر شكلت كلمة "صهيون" جزءاً من اسمها (بدأ اسم الحركة لها منذ عام 1890). القدس (صهيون) في الفكر اليهودي والوعي اليهودي الفردي والجماعي هي المدينة "الأبدية" للشعب اليهودي، على الرغم من كونها مدينة جريح على مرّ العصور. ولها مكانة خاصة ومركزية في نفس كل يهودي في المهجر.

ومع مرّ الزمن أصبحت صهيون مرادفة/ لأورشليم/ لإسرائيل. وصهيون/ أورشليم شكّلتْ موتيفاً عند الكتاب اليهود في المهجر، وفيما بعد عند الكتاب العبريين الجدد، أي بعد قيام دولة إسرائيل عام 1948. صهيون/ أورشليم كانت عبارة عن شعلة، وشكلت موتيفاً في قصائد يهود المهجر، تشهد على ذلك هي مئات القصائد التي كُتِبتْ حول صهيون/ القدس، ونجد أنّ الموتيفات المركزية المتكررة في هذه القصائد تتمحور حول التركيز على العلاقة القديمة والرّاسخة، التي لا تُزَحزَح بين اليهودي في أماكن تواجده المختلفة وبين صهيون/ أورشليم والحنين، واللوعة، والتعبير عن الرّغبة في العودة إلى صهيون/ أورشليم،

ووصف البعد الجغرافي، وطلب البشائر، والتركيز على إبراز المفارقات بين الحياة في الخارج وفي صهيون.

لقد استمدّ الشعراء الأوائل مصطلحاتهم من التوراة، ومن الصلاة، ومن الأغاني، حيث شكَّل كلٌّ من "حائط المبكى، والهيكل، والحج إلى القدس، والحنين، والعودة، والوفاء، وحلم بناء المدينة من جديد موتيفاً، ورافداً، ومادةً لتغذية كتابة الأدباء، وفيما بعد تحول جزء كبير من القصائد إلى أغانٍ تُلَحّن من أجل ترسيخ الذاكرة.

صهيون، القدس في الأدب العبري تمثل انعكاساً لتطلعات اليهود في العالم، فهي تمثل الإنقاذ، وأخلاقيات الشعب اليهودي، وعودة الروح، والجمال والأخلاقيات، واستمرارية الشعب اليهودي، وقلب الشعب، وحرية العبرانيين، والقدسية والكمال، ومصدر الطهارة، وأرض الأنبياء، ونقطة التواصل بين الرّب وبين شعب إسرائيل، ومركز الإنسان اليهودي، وانتصار إسرائيل، ومركز الروحانيات، ومدينة السّلام، والمدينة الأزلية، وقد آمن اليهود في الخارج بهذه العقيدة، وسخروا كتاباتهم من أجلها. من هنا فالشّعر العبري سابق للحركة الصهيونية. وفيما بعد استخدمت الحركة الصهيونية هذا الشعر (شعر بيالك، تشارنيحوبسكي، يهودا هليبي، اوري جرينبرج...) لخدمة أهدافها السياسية، ليكون زخماً ومحركاً قوياً لبرامجها وشعاراتها. إن مواكبة الأدب لبرنامج سياسي ما، يُسهِم كثيراً في إنجاحه، وهذا ما يتمناه كل سياسي، وكل حركة قومية تطمح إلى إقامة بيت قومي لشعبها. تجدر الإشارة في هذا السّياق إلى أنّ الشعب الفلسطيني أيضا يوظّف الأدب بأنواعه وأجناسه، والتراث، والذّاكرة من أجل إقامة وطن وبيت للشعب الفلسطيني (درويش، القاسم، حبيبي، كنفاني، طوقان....).

أما في الشعر العبري الحديث، فنجد حضوراً آخر للقدس، وهذا أمر مفهوم ومفروغ منه، وذلك لبداية مرحلة جديدة في حياة الشعب اليهودي، وهي إقامة الدولة، والحصول على علم، وجمع الشّتات، فالنغمة في الشّعر تبدو مختلفة جدا، فبدلاً من نغمة الحنين، واللوعة، والعلاقة التّاريخية، ووصف القدس عن بعد دون العَيْش بها، اعتماداً على ما ورد من أوصاف في الكتب القديمة، أو الغيبيّات، تظهر القدس على حقيقتها؛ فالشاعر يعيش فيها،

ويتجول في ساحاتها وشوارعها وأزقتها، ويلمس حجارتها، ويتوافد إلى المقاهي، ويحتك بسكانها ويعايشهم. من هنا فهو يصف الواقع ولا يصنعه أو يتخيّله، فقد تحرّر من قيود الالتزام بإقامة بيت للشعب اليهودي، لذا فلا نجد لوناً واحداً مسيطراً كما وجدناه في الشعر العبري في الخارج. حيث يجد القارئ القدس بأشكال مختلفة: تكتظ بالسّيّاح، مقسمة جغرافياً بين الإسرائيليين والفلسطينيين، ممزقة اجتماعياً وسياسياً، جريحا، تنزف دماً، مدينة حجارة[10].

إن توظيف التراث الديني التوراتي، والتاريخ اليهودي في الأدب العبري الحديث، جاء للبيان والتأكيد على الحق اليهودي في البلاد. ويمكننا في هذا الصدد الوقوف عند بعض النماذج الشعريّة البارزة:

يهودا هليبي (1075 – 1140) المعروف في العربية بأبي الحسن اللاوي

يعبر عن حنينه للقدس في قصيدة "قلبي في الشرق"[11]

قلبي في الشرق وأنا في أقاصي الغرب
كيف سأتذوق طعامي وكيف سأستلذ؟
كيف سأقيم نذوري والمحرّمات، حيث
صهيون في أرض أدوم، وأنا في أغلال العرب؟
فمن السهل عليّ ترك ملذّات إسبانيا، كما
أنه غالٍ عليّ أن أرى رماد الهيكل الخَرِب

تصف هذه القصيدة حال الإنسان اليهودي خارج صهيون/ القدس، فمن الناحية الفعلية، فالمتحدث في إسبانيا، أما من الناحية العاطفية والروحانية فهو في القدس؛ مدينة رفات الآباء والأجداد وأنبياء إسرائيل، وهو مفعم بالحنين والشوق للقدس، ويودّ لو استطاع وصولها لأداء الفرائض الدّينية، فعبر الكلمات (الغرب والشرق) يريد أن يظهر التّناقض بين الشرق الروحانيّ والغرب الماديّ والمكبّل. وحسب المصادر التاريخية، فقد وصل يهودا هليبي بحرا عبر الإسكندرية إلى القدس وتوفي فيها[12]

ويبدو الشاعر ناكرا جدّا للجميل حينما يقول: "وأنا في أغلال العرب" حيث كان اليهود يعاملون في ظل الحكم الإسلامي بالأندلس بالعدل، وكانوا يفضلون حكم المسلمين على النصارى، وحصلوا على الحرية الدينية والفكرية، وشاركوا في النهضة العلمية والفكرية والنشاطات الاقتصادية كافة، كما أن المسلمين سمحوا لهم بالسكن في المدن الأندلسية، وكذلك السكن خارج الحي اليهودي بعد أن حرمهم "القوت" من ذلك، كما أتيحت لبعضهم فرصة تأدية أعمال ومهمات لصالح الدولة، وعمل بعضهم في بلاط الخلفاء، وكذلك أُوكل لرجال اليهود جمع الجزية من اليهود، وخدمة اليهود خارج الأندلس، دلالة على الثقة بهم.

وفي قصيدة "لكِ نفسي مطمئنة"(13)

... كيف ينسى يهودا يهودا؟
ونَستَخفّ ذلك مقابل محبّتك
إلى أن أصل بوابتك شاكرا
وأسكن هناك، وأختار قلبي
على مَذبحك أضحية مربوطة
وأحفر قبري في أرضك
لكي يكون لي شاهدا

يتساءل المتحدث يهودا، وهو الشاعر نفسه يهودا هليبي، أسئلة إنكارية، هل من الممكن أن ينسى أرض يهودا/ القدس؟ إنه يريد الوصول إلى هناك، وهذا هو مأربه الوحيد من أجل أداء الفرائض الدينية، أو من أجل الموت هناك، لأن القدس هي البوابة إلى السماء، بوابة جنة عدن لكل يهودي. ويصف المتحدث شعوره حين وصوله إلى أرض الميعاد/القدس؛ ذلك الشعور الخاص؛ شعور الاضطراب والخشوع، الذي لا يشعر به اليهودي إلا في القدس.

الشعر العبري الذي كُتِب في الأندلس، والذي يصف العلاقة التاريخية بين اليهود ومدينة القدس، ويعبر عن الشّوق الشديد، والدّافع القوي، والأمل للوصول إليها، يشكّل

جنساً أدبياً مميّزا في هذا الشعر. وكانت عند اليهود في أوروبا عادة متوارثة، خاصة عند كبار السّن من اليهود، وهي القدوم إلى القدس لكي يحظوا بالموت بها، والدفن فيها. وكل ذلك ليكونوا من بين الأوائل لمقابلة المسيح المنقذ، حينما يأتي إلى القدس حسب اعتقادهم، ونجد جذورا لهذة العادة في التلموذ البابلي: "قال الرّابي عنان: كلّ من يُقبر في أرض إسرائيل هو مقبور تحت المذبح"[14]

إلى العصفورة[15]

حاييم نحمان بيالك (1873–1943)

تحية إليك يا عصفورة جميلة
عُدْت إلى نافذتي من البلاد الحارة
لشدوك الرقيق كم صَبَوْتُ، كم حَنَنْتُ،
في وحشة الشتاء، بعدما هجرت حارَتيّ
ترنمي، تحدثي، عصفورتي عزيزتي
عما بتلك الأرض من عجائب غرائب
وهل بهاتيك الربوع الحارة الجميلة
هناك أيضا تكثر الأرزاء والمصائب؟
ترنمي، عصفورتي، وحدثي عجائبنا
من بقعة يزدهر الربيع فيها أبدا
ترنمي عصفورتي، تحدثي عن موطنٍ
عاش ومات في ربوعه جدودي السالفون

نشرت هذه القصيدة لأول مرة عام 1891 بمدينة أوديسا في أوكرانيا. يظهر في هذه القصيدة الحنين إلى صهيون. ويركز الشاعر– شاعر القومية اليهودية – على العلاقة التاريخية

ما بين اليهود في الخارج وصهيون، مستعملاً مصطلح "موطن"، كما يدلل على العلاقة القوية، التي لم تنقطع بين اليهودي والأرض، والعمل في الأرض، لأن مثل هذا العمل له قدسيته في الديانة اليهودية. ويصف الشاعر البلاد عن بعد، دون أن تطأها قدماه، مستمداً وصفه مما ورد في التوراة، حيث وُصِفت ببلاد اللوز والنخيل، على العكس من أوصاف محمود درويش – شاعر فلسطين الموازي لبيالك – المستمدة مما تراه العين ويستنشقه الأنف، حين تحدّث عن الزعتر، والميرمية، والزيتون، والسنديان. ويقارن الشاعر بين وضعه المأساوي في الغربة، حيث المصائب والأرزاء، والمطارَدة من قبل الأجنبي المسيحي، وبين وضع اليهود الجيد في صهيون، ويود أن يكون في صهيون. ظهرت أوروبا في شعره لا سامية معادية للإنسان اليهودي، لكونه يهودياً، حيث استعمل مصطلح: "حقود" على وزن فَعُول. ووصف فلسطين بالبلاد الحارة، للدلالة على الدِّفء الداخلي؛ أي حب اليهودي لليهودي.

يدعو الشاعر اليهود – وخاصة الشباب منهم – إلى الهجرة إلى فلسطين مستعملاً أسلوب "العصا والجزرة" أو "الترغيب والترهيب"، لأنه لا مستقبل لليهودي – حسب ما يرى – في أوروبا المسيحية المطارِدة، فإذا أراد اليهودي الحياة، والحفاظ على ذريته، فيجب عليه الهجرة فوراً قبل فوات الأوان.

فالشاعر اليهودي بيالك يرى في فلسطين وطنه القديم – الجديد. ويشكل شعره قمة الإنتاج العبري على مرّ العصور. وقد نالت قصائده إعجابا واحتراما لدى اليهود. وبالرغم من كونه من مواليد أوروبا، إلا أنه لا توجد علاقة نفسية تربطه بها. لذا فقد هاجر إلى فلسطين، وقد كُتِبت هذه القصيدة قبل هجرته إلى فلسطين، وهي قصيدة شوق يفضي بحديثه إلى العصفورة التي يتخيل أنها عائدة من فلسطين، ويتمنى الحصول على جناحين ليطير إلى فلسطين. فالعصفورة ترمز إلى الحرية وهي ترمز لليقظة اليهودية ولليهود في فلسطين، على العكس من يهود المهجر.

إن وصف أرض فلسطين يتكرر من بداية القصيدة وحتى نهايتها، مع ما تحويه من جمال مقابل قبح الغربة. ويثير المتحدث سؤالا مهمّا مفاده: إلى أين وُجهَة الشعب اليهودي في ظلّ الإحباط اليهودي؟ تجدر الإشارة أنه لا يوجد ذكر للشعب الفلسطيني الذي يسكن البلاد،

وهذا تطبيق للمقولة الصهيونية "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض" المتحدث يدعو إلى القيام بعمل دراماتيكي تاريخي من أجل إحداث تغيير تاريخي في حياة الشعب اليهودي.

إن عالم اليهودية لا يتماثل مع عالم المكان أو مكان العالم، فالهوية الإسرائيلية الحديثة انطلقت أساسا من الفكرة الصهيونية والتي في جوهرها تعتمد على فكرة العودة. فبيالك يعتمد هنا على ركائز توراتية دينية لإقامة وطن قومي يهودي في فلسطين. إن الإنسان اليهودي بين المكان وبين العالم، لذلك فمصطلح مكان الولادة لا يعني شيئا لليهودي، إذ إن الفكرة هي التي تقرر المكان.

مدينة بابل التي تحكي قصة السبي اليهودي، التي شكّلت موتيفاً في الأدب العبري، نجدها عند محمود درويش تحكي حكاية السبي الفلسطيني في بقاع العالم، ففي حين أننا نجد في الشعر العبري أن الإنسان اليهودي يحنّ إلى القدس، نلحظ عند درويش أنّ المكان "القدس" يحنّ إلى الإنسان الفلسطيني، ويناديه إلى العودة إليه لجمع الشّتات الفلسطيني، فالمكان لم ينس الفلسطيني الذي غادره منذ زمن قصير فقط، في حين أنه لا يتذكر الشعوب السابقة، وهذا دلالة على العلاقة المتينة بين المكان والفلسطيني:

وتغني القدس(16)
يا أطفال بابل
يا موالد السلاسل
ستعودون إلى القدس قريباً
وقريباً تكبرون
وقريباً تحصدون القمح من ذاكرة الماضي
قريبا يصبح الدمع سنابل
آه يا أطفال بابل
ستعودون إلى القدس قريباً، وقريباً تكبرون
وقريبا، وقريباً، هللويا هللويا

نجد هنا تبادل أدوار بين اليهودي والفلسطيني؛ فالفلسطيني يأخذ مكان اليهودي التائه، وهو يحنّ إلى وطنه، ووطنه يحنّ إليه، ويحدوه الأمل المحتم بالعودة، كما كان الأمل يحدو تشارنيحوبسكي وبيالك وإمبير وغيرهم.

نوعمي شيمر(1930 –2004)(17)

القدس من ذهب

طقسُ جبالٍ جاف كالنبيذ

ورائحةُ صنوبرٍ

محمولةٌ برياح ما بعد الظهيرة

مع صوت أجراسٍ

عند لثوم شجرة بلوط وحجر

مأسورة بحلمها

تجلسُ المدينةُ المعزولةُ

وفي قلبها سرور

القدسُ من ذهب، من فضةٍ ومن نورٍ

ها أنا قيثارةٌ لكل أشعارِك

كيف جفّت آبارُ المياهِ،

ساحةُ السوقِ خاليةٌ

لا أحدَ يزورُ جبلَ الهيكل ....

كتبت نوعمي شيمر هذه القصيدة أسابيع قليلة قبيل حرب حزيران عام 1967 – حين كانت المدينة مقسمة – وذلك تلبية لطلب رئيس بلدية القدس تيدي كولك بمناسبة احتفال في المدينة، وقد كان توحيد المدينة بعد حرب حزيران 1967 دافعاً لإضافة بعض الأبيات للقصيدة على يد الشاعرة. لقد لاقت القصيدة رواجاً وقبولاً عند الجمهور الإسرائيلي، وأصبح الشارع الإسرائيلي يغنّيها، حيث تصف القصيدة الشطر العربي – الشرقي

من المدينة، حين كان يخضع للحكم الأردني، بأنه حزين وخال من الحياة، حيث أزيز الرياح، وذلك بعد نزوح اليهود منه: "كيف جفّت الآبار، ساحة السوق خالية .... وفي المغائر الصخرية تنوح الرياح .... لا أحد ينزل البحر الميت في طريق أريحا.." . وتركز نوعمي على التراث اليهودي في المدينة، وكيف أن اليهود حرموا خلال فترة طويلة من زيارة أماكنهم المقدسة – حائط المبكى – لأداء فرائضهم الدينية، وكذلك زيارة المقابر حيث قبور الآباء والأجداد(18). وتتجاهل نوعمي شيمر مع سبق إصرار الوجود العربي عميق الجذور في المدينة، مخالفةً بذلك معظم الشعراء العبريين الذين يقرون بالوجود العربي بالرغم من الصراع والخلاف بين الشعبين.

راعٍ عربي يبحث عن جدي(19)
يهودا عميحاي (1924–2000)

راع عربي يبحث عن جدي في جبل صهيون
وفي جبل مقابل أبحث أنا عن ابني الصغير
راع عربي وأب يهودي
في فشلهم المؤقت
البَحثُ عن جدي أو عن ابن
كان دائما
بداية ديانة جديدة في هذه الجبال
صوتانا يلتقيان فوق
بركة السلطان في المرج في الوسط
إثنانا لا نريد أن يدخل الابن والجدي إلى مسار
الآلة المخيفة حاد جاديا
بعد ذلك وجدناهما بين الشجيرات

وعادت أصواتنا إلينا وبكت وضحكت في الداخل

عاش يهودا عميحاي معظم حياته في القدس، وأحب المدينة كثيرًا، لذلك نجد حضورا بارزا للقدس في شعره، لقد كتب أكثر من 150 قصيدة عن القدس. إن الطابع العلماني، وليس الديني، هو المسيطر على شعر عميحاي[20]، فالتاريخ وعلم الآثار لا يعني له الكثير، بالرغم من توظيفه التاريخ وعلم الآثار. إنّ التاريخ وعلم الآثار يعني الكثير للحركة الصهيونية، وللسّياسيين وللكتاب القوميين، الذين يريدون أن يكون الإنسان عبداً ومطية للماضي السحيق ولخدمة الأساطير. في نظر عميحاي، الإنسان ضحية التاريخ، وعلم الآثار، ومن الأجدر أن يكون الإنسان أهمّ من التاريخ ومن علم الآثار[21]. هذه القصيدة كُتِبت بعد العام 1967. وعلى العكس من قصيدة نعمي شيمر، تشير إلى وجود كلٍّ من العربي واليهودي في جبل صهيون، وكلٌّ منهما يبحث عن ضالته، وكلٌّ منهما يحاول جاهداً أن يجد ما فقده. القصيدة تظهر الإحباط المسيطر على الطرفين من جهة، والشّوق القوي للحياة من جهة أخرى. الحياة ترمز إلى أن الشعبين: الإسرائيلي والفلسطيني سيصلان في النهاية إلى الشيء المفقود، وهو السلام. إن البحث الجاد والمتواصل من قبل الاثنين أوصلهما إلى الابن وإلى الجدي مجتمعين بين الشُجيرات. إنها قصيدة تعكس التعطش للسلام. يعلق بروفسور جرشون شاكيد (أستاذ الأدب العبري الحديث والنّقد في الجامعة العبرية) على هذه القصيدة قائلاً: ... أبوان من أطراف متعادية يهتمان بنسلهما – أو ما يشبه النسل – ذاك النسل الذي لا حول له. من الممكن أن يصلا إلى المصالحة، لأن الحب الحقيقي يتغلب على الكراهية. كل من الأبوين يحاول فكّ أسر محبوبه من المصيدة المخيفة. إن كلاً من الأبوين مشحون بمحبة إنسانية لابنه. وهما اللذان باستطاعتهما تخليصنا[22]. يتميز شعر عميحاي بأنه لم يطبّل للحرب ولم يمدحها، وهو ضد استغلال الإنسان وتسخيره للحرب باسم دوافع وأهداف قومية، إنه يرى الحرب عبر عيون الجرحى والأموات والأرامل والثكلى[23]. لا شك أن القصيدة تدعو إلى بداية جديدة: الدّعوة للسلام ومناهضة الحرب، وتعترف بحقوق الآخر

وإنسانية الآخر، فكل من اليهودي والعربي مطارَد بأشكال مختلفة، وفقط، المصالحة بين الطرفين ستضع حداً لذلك.

يُعدُّ شعر عميخاي شعر احتجاج واعتراض على المفاهيم الدينية والسياسية والآيديولوجية المسيطرة عند الطبقات القيادية المسيطرة في إسرائيل. وعبر شعره الذي يتحدث عن القدس يريد الاعتراض على بعض الأساطير اليهودية والإسرائيلية(24) نجد هنا العمل المشترك بين الطرفين من أجل الوصول إلى هدف مشترك، وهو إنقاذ الضائع/المفقود. وتلتقي هذه القصيدة مع رواية عاموس كينان "في الطريق إلى عين حارود/جالود" حيث يلتقي بطريق الصدفة الفلسطيني محمود من الطيرة باليهودي من يافا، وكل منهما هاربٌ وباحثٌ عن النّجاة، إثر انقلاب دمويّ قامت به مجموعة يهودية يمينية متطرفة في الدولة اليهودية. ومن أجل إنقاذ نفسيهما يعملان سويّة في البحث عن سُبل للخلاص.

قصيدة " رائحة البنزين في أنفي " عميحاي(25)

رائحة البنزين في أنفي
سأضع روحَكِ، أيتها الفتاة، في كفّي،
كالأُترُج داخل صُوف ناعم، أيضا أبي المتوفّى هكذا فعل
انظري فشجرة الزيتون انفكّت تتعجب
هي تعلم وجود فصول ويجب أن تسافر،
امسحي وجهَكِ وقفي بجانبي
وابتسمي كما في صورة عائلية
حَزمتُ قمصاني وحزني
لن أنساكِ، فقد كنتِ فتاة أحلامي
الأخيرة قبل المكان، الخلاء،
حيث لا توجد بها شبابيك وبها حرب فقط

القصيدة مفعمة بالحزن من بدايتها وحتى نهايتها. إنها تصف أجواء الحرب التي تعيشها إسرائيل منذ قيامها. فالإسرائيلي مُرهق في أعماله وهمومه اليومية، وفجأة يُدعى لحزم

أمتعته والالتحاق بالخدمة الاحتياطية في جبهة القتال. ولكنه لا ينسى أن يُودّع الأحبة، الذين من المحتمل ألّا يراهم بعد، ومن بينهم الحبيبة، حيث يحاول إقناعها بقبول الواقع المرّ. هذا الوضع غير طبيعي في نظر المتحدث، فهو يتساءل باحتجاج: هل هذا هو قَدَر الشبيبة الإسرائيلية المحتوم؟ ألّلأبد يأكلون الحِراب؟ ألا يحق للشباب الإسرائيلي أن يمارس حياة طبيعية كباقي شباب العالم؟ متى سيوضَعُ حدّ لهذا المسار؟ هذه أسئلة بحاجة إلى إجابة سريعة من قِبَل صُنَّاع السياسة في إسرائيل، ولذا فإنّ هذه القصيدة احتجاج ضد الحرب ودعوة للسلام.

الأمل(26)

نفتالي امبر (1875–1943)

طالما في القلب عميقا
نفسٌ يهوديةٌ ثائرة
وإلى صهيون ترتقب
لم نفقدْ أمَلَنا بعد
الأملُ المتكررُ
العودةُ إلى أرضِ آبائِنا
إلى المدينةِ التي تَوَقّفَ بها داوود
وبين خرائبِ القدس
ما زالت بنتُ صهيون تبكي
لم نفقد الأمل
طالما دموعٌ طاهرةٌ
من عينِ ابنةِ شعبي تُذرَفْ
وتبكي لصهيون برأسٍ منحن

كتبت هذه القصيدة في رومانيا عام 1878، ونشرت لأول مرة في كتاب في العام 1886. وقد أُلقيت لأول مرة أمام جمهور مزارعين في مدينة ريشون- لتسيون. السؤال هنا

هل جاء إلقاء القصيدة صدفة أمام المزارعين وليس أمام السياسيين، أم مقصوداً للدلالة على العلاقة القوية منذ القدم ما بين الإنسان اليهودي والأرض؟ وفيما بعد أصبحت هذه القصيدة النشيد الوطني لدولة إسرائيل بعد إجراء بعض التغييرات عليها. تركز هذه القصيدة على أن القدس – صهيون منحوتة عميقا في الذاكرة اليهودية. وأن الأمل والحلم بالعودة لم يفارقا اليهودي في الخارج ولو للحظة واحدة، وأن هذه هي وصية الآباء للأبناء. إن التعطش والشوق للحرية والعودة يواكبان القصيدة من بدايتها وحتى نهايتها. إنها لوحة تسطر التاريخ والحلم اليهودي. ولن يشعر اليهودي بالحرية والاستقلال والكيان، وبكونه أمّة إلا في القدس[27]. النشيد الوطني "هتكفا - الأمل" يثير بين الفينة والأخرى جدلاً واسعاً بين جماعات من العرب في إسرائيل، وبين جماعات يهودية، ونذكر على سبيل المثال، ما حدث إثر رفض بعض الطلاب العرب من كلية الحقوق من جامعة حيفا إنشاد النشيد الوطني في حفل التخرج. وكذلك عندما امتنع قاضي المحكمة العليا العربي سليم جبران عن إنشاد هذا النشيد. تجدر الإشارة هنا إلى أن الكثير من القضاة اليهود قد دافعوا عن القاضي جبران إثر النقد الذي وُجِّه إليه. ومن أبرز المدافعين عنه نذكر قاضي المحكمة العليا المتدين إليكيم روبنشتاين. كذلك فقد تفهم رئيس الحكومة نتانياهو موقف القاضي جبران، الأمر الذي فاجأ الكثيرين.

رئيـس بلديـة[28]

يهودا عميحاي

حزين أن تكون
رئيس بلدية القدس
مخيف هو الأمر
كيف يكون إنسان رئيس بلدية كهذه
ماذا يفعل بها
يبني ويبني ويبني

وفي الليل تقترب حجارة الجبال من حولها
إلى البيوت
مثل الذئاب القادمة لتعوي على كلاب
أصبحت عبيداً للبشر

إن رئيس البلدية المشار إليه هنا هو تيدي كولك. ولكن الأمر ينسحب على كل رئيس بلدية للقدس.

نحن نرى أن اليأس هو المسيطر في القصيدة. أجواء هذه القصيدة دفعت بالشاعرة اليسارية دالية رابيكوبيتش أن توجه لرئيس البلدية إيهود أولمرت رسالة شديدة اللهجة إثر عمليات هدم البيوت العربية في القدس العربية، وخاصة في حيّ سلوان، وقد جاء بها ما يلي: ... يؤلمني أنك رئيس بلدية القدس، عاصمة دولة إسرائيل، تلطخ احترامي الذاتي اليهودي، عندما تقوم بهدم بيوت عربية في القدس بادعاء سخيف، بأنها قد بنيت مخالفة للقانون. فحتى الأتراك الذين حكموا البلاد، والذين لم يمتازوا بالحساسية لحقوق الإنسان، امتنعوا عن هدم بيت مسقوف. لقد بنيت البيوت العربية دون ترخيص، لأنه لا يوجد أمل ولو بقدر الخنصر للحصول على ترخيص .... والناس بحاجة إلى بيوت، حتى ولو كانوا عرباً. إنهم بحاجة إلى سقف، دونه لن تكون للإنسان طمأنينة، وكيان ....لقد حوّلتَ المدينة إلى تراب[29]

سيّاح[30] يهودا عميحاي

يقومون بزيارات تعزية إلينا
يجلسون بياد وشيم بجدية بجانب حائط المبكى
ويضحكون من خلف ستائر ثقيلة في غرف الفنادق
يلتقطون الصور مع أموات مهمين في قبر راحيل
وفي قبر هرتسل وتلة التحموشيت

يكون على جمال شجاعة شبابنا
ويرغبون بعناد فتياتنا
ويعلقون ملابسهم الداخلية
لتجف بسرعة
في حمام أزرق وبارد
ذات مرة جلست على درجات بجانب قلعة داوود، وألقيت السلتين
الثقيلتين بجانبي. مجموعة سياح وقفت هناك بجانب المرشد
وكنت لهم نقطة صهيون."أنتم ترون الرجل، ذلك الرجل
مع السلال؟ قليلا عن يمين رأسه يوجد قوس من العهد الروماني.
قليلا عن يمين رأسه". لكنه تحرك، هو تحرك" . قلت لنفسي:
الخلاص سيأتي فقط عندما سيقولون لهم: أنتم ترون هناك القوس
من العهد الرومي؟ ليس مهما: لكن بجانبه، قليلا إلى اليسار
وإلى الأسفل منه، يجلس إنسان اشترى فاكهة وخضاراً لبيته.
السائح- إنسان يأتي ليرى.

نشرت هذه القصيدة في العام 1980. وتصف السيّاح الذين يأتون لزيارة الأماكن التاريخية والأثرية في مدينة القدس، حيث إنهم يهتمون بالماضي والتاريخ والتراث، أكثر من الاهتمام بالإنسان الحي(31). يقول المتحدث: لا شكّ أن الأماكن الأثرية، والتاريخية، والذاكرة مهمة، لكن الإنسان، والحياة هما الأهم، ويجب أن يكون الإنسان في المركز وفي المقام الأول. يدعو المتحدث إلى عدم التقوقع في الماضي والأقواس والحجارة والأموات، والرموز التاريخية، بل يجب الالتفات إلى الحاضر والمستقبل، وبناء غد أفضل للشعوب والأجيال الجديدة. حب الحياة يجب أن ينتصر على الماضي وعلى الذاكرة. إن "الشبان" أصدقاء الفتيات العنيدات يرقدون الآن في القبور في الجبل القريب نتيجة للحروب المتكررة التي اندلعت بسبب تقديس الحجارة، والرموز، والذاكرة، بدلاً من الحياة، والإنسان والمستقبل

المغاير. نعم، للأموات قدسيتهم، ولكن للحياة أيضاً قدسيتها، وللأحياء حق العيش. فهم لم يولدوا للموت وليكونوا وقوداً للحرب. إن البطولات لسباق الخيول، وليست لموت الشباب في الحروب. القصيدة مفعمة بالاحتجاج ضد الحرب والموت المجاني، ودعوة إلى السلام بين الشعوب، وخاصة للإسرائيلي وللفلسطيني. وعندما سيحل السلام ستفك القدس عقال الحزن والحِداد، وستغير ملامحها، وستصبح مدينة طبيعية، مدينة الأحياء لا مدينة الأموات والقبور، مدينة فَرِحة، وسيستعذب الإنسان العيش فيها. المتحدث يحذر من تجريد الإنسان وتحويله إلى "شيْ".يجب ألا نفضل الماضي والتاريخ على الإنسان. إن التمسك بالماضي يفقدنا الحاضر والمستقبل والحياة. يجب ألا نفضل الحجر على الإنسان. إن حجارة العالم كلها لا توازي حياة إنسان واحد. وهنا كما نرى تفضيل الحجر على الإنسان، وترك الإنسان وحيداً يجرجر همومه وأتعابه وسلاله التي تحتوي على قوت بسيط لعائلته. إن الاستمرار في السير بهذا الاتجاه من الممكن أن يؤدي إلى فقدان الشعب وبقاء الحجارة الجلمود.

القدس(32) يهودا عميحاي

على سطح في المدينة العتيقة
غسيل مضاء بالضوء الأخير من النهار
شرشف أبيض لعدوة
منشفة لعدو
لينشف بها عرق جبينه
وفي سماء المدينة العتيقة
طائرة من ورق
وفي طرف الخيط
ولد
لم أره
بسبب الجدار
أطلقنا (نحن) أعلاماً كثيرة

أطلقوا (هم) أعلاماً كثيرة
لكي نظن أنهم فرحون
لكي يظنوا أننا فرحون

كتب عميحاي هذه القصيدة قبل حرب الأيام الستة 1967، حينما كانت المدينة مقسمة بين الأردن وإسرائيل. يرى المتحدث بالطرف الآخر العدو "إنساناً" مثلَه وموازياً له. لديه همومه اليومية، وأعماله، وأحلامه وعائلته. إنّ تنشيف العرق يدلّ على شقاء الآخر. المتحدث ضدّ السّور الفاصل، الذي يفرّق بين البشر. السّور سور سياسي وليس طبيعياً، وليس بمقدوره محو الآخر من الوجود. السور إشارة إلى العداء الذي صنعته الدول والسياسات، وهو يخفي شقاء الأنا وشقاء الآخر. إن السور الفاصل بين الطرفين لم يفقد أياً منهما إنسانيته. المتحدث يشعر ويعترف بوجود الآخر، بالرغم من عدم لقائه ومعرفته وجها إلى وجه، كما أنه لم يقزم الآخر، ولم يجرده من إنسانيته، في حين أنّ دولته ترى بالآخر عدواً. الآخر يمارس الأعمال نفسها التي يمارسها المتحدث من غسل الملابس واللعب بطائرة من ورق. الآخر يسكن المدينة القديمة، وهذا للتدليل على قِدَمِه في المكان. القصيدة تبرز تماثل المتكلم وتعاطفه مع الآخر، بالرغم من القطيعة بين الطرفين. نعم، الحرب باستطاعتها الفصل بين البشر، لكن ليس بمقدورها تجريد الإنسان من إنسانيته وأخلاقياته وتحويله إلى إنسان مفرغ، إلى شيء، جسد بلا روح. إنّ إطلاق الأعلام من قِبَل الطرفين إشارة إلى التّوق إلى السلام والمصالحة، ورؤية الآخر وجها إلى وجه. إنّ السياسة الخاطئة تجعل حياة الذّات والآخر شاقّة، مفرغة من المتعة. وعليه، فإنّ القصيدة إنسانية تدعو إلى أخوّة الشعوب.

الشاعرة مايه بوجرانو: في قصيدتها "نتنياهو نتنياهو، أبداً لن تُقَسِّم القدس؟[33]

نتنياهو نتنياهو
أبداً لن تُقَسِّم القدس؟
القدس لن تُقَسَّم ؟

"لن أسمح بتقسيم القدس –
لن أُقسمها"
وقال الراب نحمان اسمع: لا يوجد قلب تام أكثر من قلب مكسور
والقدس هي قلب الواقع
واقع زائد بها مثل كل المدن المتنازع عليها
والواقع مجزَّأ كل الوقت
كجسد حي أعضاؤه
والأجزاء– يجب ملاءمتها وقبرها
يجب إدخال غضروف بَرَكة
الغضروف – هذا يجب عليك أن تجده، أن تُنتِجه
أن تجد لكل كسر وكسر
نتنياهو نتنياهو

المتحدث يسخر من تصريحات السياسيين الإسرائيليين، وخاصة تلك التصريحات والشّعارات التي يُصَرّح بها السياسيون قبل الانتخابات، والتي لا تثبت على أرض الواقع، وأن الكثير منها جوفاء لا رصيد لها. ومن بين هؤلاء نتنياهو نفسه. فهؤلاء يصرّحون بكرة وأصيلا بِعَدَم تقسيم القدس. وكان من الأجدر بهم أن يقترحوا حلولا عقلانية، وبنّاءة، تكون مقبولة من الطّرف الفلسطيني أيضا، فالإنسان لا يعقد السلام مع نفسه، بل مع الطرف الآخر للصراع. وفي نظر المتحدث، فالقدس كالجسد الجريح ينزف دما. ويوجه المتحدث نتانياهو وغيره إلى أقوال حكماء اليهود القدامى. أما نحن فنوجِّه إلى قصيدة يهودا عميحاي الآتية:

في المكان الذي به نحن صادقون(34)

لن تَنبت أبداً
زهور الربيع
المكان الذي نحن به صادقون
هو قاس ومَدُوس ....

لا تكن صادقاً، كن ذكياً، كم هو صحيح.

كم هو صادق الشاعر يهودا عميحاي. إنه يريد إخراج الإنسان من داخل العلبة ليفكر بطريقة عقلانية ومنطقية.

"على سطح دير نوتردام (35)

يتسحاك شاليف (1919-1992)

كَتَب يتسحاك شاليف هذه القصيدة في العام 1966، حينما كانت المدينة مقسمة. ويتسحاك شاليف معروف بانتمائه اليميني، على العكس من ابنه الأديب المعروف مئير شاليف، يساري النزعة. يقع دير نوتردام في الجزء الغربي من القدس مقابل سور المدينة وعلى بُعدِ أمتار منه، ومحاذياً لمنطقة "الحَرَام". وفي هذا الدير سكن أيضاً يهود قادمون جدد، وغادروه بعد حرب العام 1967. هذه القصيدة تصف حال المدينة حين كانت مقسّمة.

سطح دير نوتردام كان لي كَنِبُو (جبل في الأردن)
أرى المقَدّسات ولكن إليها لا أصل
نقاط تَبيَضّ هناك في جبل الزيتون
حجارة قبور أخي هي، من تحتها الأموات
خمس سنوات لم تُزر
لا صلاة ولا باقة ورد في بيتهم.
والكل قريب ... أرسل يدك وخذهم
باب الخليل وباب العمود.
والكل بعيد، كحلم يمرُّ
هَبَطتَ من السطح، وليس موجوداً أكثر...
فقط تردّدات بشروش أصابع
فقط اصطكاك أسنان وضغط دموع....

يصف المتحدث شعور الإنسان اليهودي عندما كانت القدس مقسمة. فالمتحدث يأتي إلى دير نوتردام، ويصعد إلى السطوح العالية، ليتمكن من رؤية الأماكن اليهودية المقدّسة والمقابر الكائنة في الشطر الشرقي من القدس الواقعة تحت السيادة العربية. فهو يراها، ولكن لا يصلها. وهذا الوضع يُذّكِره بالنبي موسى عندما وقف في جبل نبو في الأردن، فمن هناك رأى البلاد ولكنه لم يدخلها. والفرق بين الأمرين هو أن النبي موسى لم يدخل البلاد بأمر الله، أما المتحدث، فلا يتمكن من الدخول بسبب العرب. فالمتحدث يعلي نبرة الشعور بالاضطهاد المعروفة عند اليهود.

قصيدة "باب الواد"(36)

حاييم جوري (1923 –)

هنا أمُرّ أنا، منتصبا بجانب الحجر،
شارع أسفلت أسود، صخور وسلاسل.
مساء يهبط ببطء، رياح بحر تهب
ضوء النّجم الأول من جهة بيت محسير.
باب الواد
رجاء اذكر للأبد أسماءنا
قوافل اقتحمت في طريقها إلى المدينة
في جوانب الطريق ملقاة أمواتنا.
هيكل الحديد صامت، مثل رفيقي.
هنا غَلي زفت ورصاص تحت الشمس....
باب الواد

هذه القصيدة من أشهر القصائد التي كُتبت حول حرب العام 1948. وهي محفورة عميقا في الذّاكرة الإسرائيلية، وقد لُحِّنت مرّات عديدة. تصف القصيدة إحدى المعارك الطاحنة التي وقعت في المداخل الغربية لمدينة القدس في حرب العام 1948، حيث قُتِل العديد من العرب واليهود. يصف المتحدث، وعلى الأرجح هو الشاعر نفسه الذي اشترك في

المعركة، هول الحرب حيث الجُثث والمدرعات المحروقة الملقاة على جوانب الطرقات. إنّ ما يريد قوله المتحدّث، هو أنّ القدس أُخِذت بالدّمّ، حيث كانت هناك مقاومة فلسطينية مستميتة للدفاع عن مدينة القدس.

الخاتمة

إن الصفة الغالبة على الشعر العبري الذي كُتب في الخارج قبل العام 1948 هي الحنين والرغبة في العودة إلى فلسطين، والتركيز على مطاردة الأغيار لليهود. وقد استمد الشاعر اليهودي معلوماته ومصطلحاته عن القدس من الوثائق الدينية والتاريخية لإبراز الحق التاريخي. إن الحنين مشوب بحلاوة المستقبل. أما في الشعر الذي كُتب بعد العام 1948، فنجد أن الشاعر يصطدم بصخرة الواقع، ويصف القدس عن كثب، كما يراها بأمّ عينه دون وسيط. فهي جريحة، وممزقة، وتتصاعد منها رائحة البنزين والحرائق، وتنعق بها الغربان.

الهوامـــش

1/ سفر الخروج، 32، 15.

2/ امنون، رامون.(2003). مدينة في أزمة. ص 66.

3/ سفر التكوين، 1، 4.

4/ سفر التكوين، 14، 18-20 .

5/ امنون، رامون.(2003). مدينة في أزمة. ص 66 .

6/ سفر المزامير، فقرة 137.

ينظر أيضا: يوسف ،كلاوزنر (ت ش ي د). هستوريا شل هبايت هشني، ص 65-66 .

7/ الموسوعة العبرية ج 20، ص223-359. وينظر أيضا: الموسوعة التوراتية.

8/ صحيفة دابار 90.04.1954 امنون هوروبيتس" خمس نساء بيلو يتحدثن.

9/ سفر المزامير.

10/ ليئه ، برتس. (2000). إيتيكه وإستيتيكه، ص6 .الموسوعة العبرية

11/ يهودا، هليفي. (2007). شعر (شيريم). ص 260 .

12/ دافيد، بنبنشتي. (1983). من سالونيك إلى القدس. ص .119

13/ يهودا، هليفي. (2007). شعر (شيريم). ص .277

14/التلموذ البابلي: كتوبوت ،111، 71

15/ حاييم نحمان، بيالك (2004). الشعر (هشيريم). ص 15-17. ترجمها للعربية راشد، حسين (1966). حاييم بيالك - نخبة من شعره ونثره.
16/ محمود درويش. (1989). الديوان. ص 398 -399.
17/ نوعمي، شيمر.(د.ت). كل القصائد. ص 40. ونوعمي، شيمر.(2003). علامات طريق (سيمني ديرخ).
18/ عاموس، أورن:" الذهب المسروق" (هزهاب هجنوب).
19/ حاييم، بئير. (1983). عصفور الحجر. ص72. حول هذه القصيدة ينظر: عاموس، أورن: يديعوت أحرونوت، 06.05.2005، وأيضاً: هآرتس، 13.05.2005. حول القدس في شعر عميحاي ينظر: د. ليلي أورباخ: ميبوي إفشرويوت شل عيتسوب يروشلايم بسفروت. بوعز، عرفلي. (2004). فرحة المقارنة. حول القدس في الشعر العبري الحديث ينظر: حاييم، تورن.(1951). القدس في شعر الأجيال.
20/ بوعز، عرفلي. (2010). صفوف المتمردين (شوروت همورديم). ص 286.
21/ المصدر نفسه، ص 289.
22/ جرشون، شاكيد. "صرخته المتريّثة" (تساعكتو هميؤبيكت). يديعوت أحرونوت، 06.10.2000.
23/ بوعز، عرفلي. (1995). "الزهور والمزهرية - شعر عميحاي" (هبرحيم وهأجرطال - شيرات عميحاي). ص 196 – 199 .
24/ بوعز، عربفلي . (2010). صفوف المتمردين (شوروت همورديم).
25/ يهودا، عميحاي. (2003). خلف كل هذا تستتر سعادة كبيرة. (مأحوري كل زي مستتير أوشر جدول). ج1، ص25. حول هذه القصيدة ينظر ايضا: راحيل، وايسبرود. (2002). بالأيام الأُخرى (بييميم هأحريم). ص 345. بوعز، عرفلي. (1986). الورد والمزهرية (هبرحيم وهأجرتال)، ص46.
26/ دوف، سدان. (1950). شعر نفتالي هرتس اونجر. استريت، بلتسان. (2009). هتكفا-الماضي، الحاضر، المستقبل (عبار، هوفيه، عتيد). ص 10 .
27/ Bloom, Cocil, Naftali Imber and Hatikvah. Midstream:a quarterly Jewish review, Vol.58, no.2 (2012) دوف، سدان. (1950). شعر نفتالي هيرس ايمبر (كل شيري نفتالي هيرس ايمبر). اورن، رام. (02012). نفس تتوق (نيفش هوميا).
28/ حاييم، بئير. (1983). عصفور الحجر (تسيبور هئيبن). ص 18.

29/ دالية، كربر: "جاءت وذهبت" (باءه وهلخا)، هآرتس 18.08.06 أيضا موقع هآرتس.

30/ يهودا، عميحاي. (2003). خلف كل هذا تستتر سعادة كبيرة. ج3، ص.348

31/ حول القدس في شعر عميحاي ينظر: ليلي، أورباخ. ميبوي إفشرويوت شل عيتسوب يروشلايم بسفروت. ليئه، بيرتس. (2000). ايتيكه واستيتيكه" بيعيتوت بهورأت شيري يروشلايم شكتبوا مشورريم لو يهوديم". معوف ومعاسيه 6، ص 13-32 .

32/ حاييم، بئير (1983). عصفور الحجر (تسيبور هئيبن). ص 81 .

33/ مجلة 77. عدد يناير .2008

34/ يهودا، عميحاي. (1977). شعر 1948-1962 .

35/ يتسحاك، شاليب. (1983). عصفور الحجر. ص 82 .

36/ حاييم، بئير. (1983). عصفور الحجر. ص 65.